العلاقة بين الفكر و اللغة

أستاذ المادة/ عبد الله لقدير

للعلاقة بين الفكر و اللغة تاريخ قديم، إلاَّ أنها لا تزال محل اختـــلاف بين الفلاسفة أنفسهم و بين الفلاسفة و اللغويين من جهة أخرى، فهناك فلاسفة يرون أن اللغة غير دقيقة،وغير منطقية، و بالتالي يجب أن تستبدل بنظـــام يخضع للمنطق، حيث يكون قـــادرا على التوُّصل إلى الهدف الذي من أجله نشأت اللغة. وهذا الرأي يبـــيِّن مدى تأثر الفلاسفة بالمنطق و اقتناعهم بضرورة بناء اللغة على أسس منطقية، و عليه، فلا يمكن النظر إلى اللغة على أنها منظومات فكرية مستقلة، و بخاصَّة عند الحكم عليها بالخلل أو النقصان.

و حين نقول عن الإنسان أنه منطقي في تفكيره، فما ذلك إلا لأنه يستخدم اللغة استخداما شعـــوريا، و ما يرتبط بذلك من عمليات ذهنية من قدرة على التميـــيز بين الحق والباطل، الحكم على الأشياء بالصواب أو الخطأ، و استنباط الأحكام، و الاستدلال على القضايا، و هي كلها عمليات عقلية لا يمكن أن نشعر بوجودها أو نلمس آثارها بمعزل عن اللغة. ونحن حين نستخدم ألفـــــاظا محددة في قضية أو مسألة ونسعى من ورائها إلى معـــرفة الأسباب والدلائل، وحين نصوغ مقدمـــات و يلزم عنها بالتالي نتائج، فإن **اللغة الاصطلاحية المنطقية** هي التي تُعِينُنا على استخدام تلك الحدود أو الألفاظ.

إن الصناعة اللغوية المنطقية –كما يرى الفـارابي- هي التي تكسبنا القدرة على تميـيز ما تنقاد إليه أذهانُـــنا، أهو حق أم باطل، و إذا كان المنطق هو أساس الجـدل الســـياسي، والجدل الفقهي والجدل الفكري، فإنه كان أساسَ علوم اللغة، لأن إتقان الخطابة، وأساليب المجادلات يعد ضرورة لمن يرمي إلى إقناع الناس، فالأعمال الفكرية تنتظم ذهنيا بوسائل تعبـــيرية (لفظية) وتتدخل اللغة كأداة ضرورية لتحقيق التواصـــل بين الأفكار و البشر. المنطق إذن ضروري لكل من أراد أن يتفقّه في الدين أو يخوض معركة ســـياسية أو كلامية أو نحـــوية،فاللغة وفق منظـــور المنطق تقتضي اختـــيارات متسلسلة و لكل اختيار منها استلزام مبـــنيٌّ على محددات، فالأفعال أو ما في معناها، تستلزم عند التركيب حروف جرٍّ متوافقة مع معناها السياقي،فاستعمال فعل التأثـير بصيغة الفعل

أو بصيغة المصدر يستلزم حرف جر« في »، لأن التأثير فعل داخليٌّ يخصّ النفس البشرية و إن استعمل في غير النفس البشرية فيستعمل استعماله بطريق القياس.

و من الطبيعي أن يكون بين اللغة والمنطق تداخلٌ معيَّن ومناطقُ اهتمامٍ مشترك، فاللغة تعبيرٌ عن الفكر، وعليها من ثَمَّ أن تراعي مقولاتِه و تراكيبَه. والمنطق بحثٌ في الفكر، وعليه من ثَمَّ أن يُبحث في أمر التعبير عن هذا الفكر، أي في أمر اللغة. وليس من قبيل المصادفة أن لفظة «منطق» نفسها مشتقة من النطق أو الكلام، بل إن معناها الأصلي بالعربية هو«اللغة» أو «الكلام»، قال تعالى: « يا أيها الناس عُلِّمْنَا مَنطِقَ الطَّيْرِ» (النمل/16) أي لغة الطير.

و في العلاقة بين العلمين (النحو و المنطق) يقول التوحيديُّ في «المُقابسات» على لسان أبي سليمان السجستاني[1]:«النحو منطق عربي، والمنطق نحوٌ عقلي، وجُلُّ نظر المنطقيِّ في المعاني، وإن كان لا يجوز له الإخلال بالألفاظ التي هي لها كالحُلل و المعارض، وجلُّ نظر النحويِّ في الألفاظ، وإن كان لا يسوغ له الإخلال بالمعاني التي هي لها كالحقائق والجواهر... وكما أن التقصير في تحبير[2] اللفظ ضارٌّ و نقص و انحطاط، فكذلك التقصير في تحرير المعنى ضار ونقص وانحطاط ...

النحو نظرٌ في كلام العرب يعود بتحصيل ما تألَفُه و تعتاده، أو تفرقه وتعلل منه، أو تفرقه و تخليه، أو تأباه وتذهب عنه وتستغني بغيره ... والمنطق آلةٌ بها يقع الفصل والتمييز بين ما يقال: أ هو حق أو باطل،**فيما يُعتقد**؛و بين ما يقال: هو خير أو شر ، **فيما يُفعل**؛ وبين ما يقال: هو صدق أو كذب، **فيما يطلق باللسان**؛ وبين ما يقال :هو حسن أو قبيح بالفعل ... قلت: فهل يُعِين أحدهما الآخر؟ قال: نعم، وأي معونة، إذا اجتمع المنطق العقلي والمنطق الحسي فهو الغاية والكمال... و بالجملة، **النحو يرتب اللفظ** ترتيبًا يؤدي إلى الحق المعروف أو إلى العادة الجارية، **والمنطق يرتب المعنى** ترتيبًا يؤدي إلى الحق المعترف به من غير عادة سابقة، **والشهادة في المنطق مأخوذة من العقل، والشهادة في النحو مأخوذة من العُرف**[3]، **ودليل النحو طباعي، ودليل المنطق عقلي**، والنحو

1- أبو سليمان السجستاني ، لم تذكر كتب التراجم تاريخ مولده،(توفي عام 371 هـ)، أما أبو حيان التوحيدي فهو (علي بن محمد بن العباسي التوحيدي) عاش بين سنتي (312 و 403 هـ).

2- التحبير يعني في هذا السياق: تحسين و تزيين. يقال: حبَّر الكلام: حسَّنه و زيَّنه.

3- الفرق بين العرف والعادة :أن العادة هي: الشيء المألوف سواء كان عند فرد أو جماعة. وأما العرف فهو :الشيء المألوف الخاص بجماعة. وعليه فإن العادة أعم من العرف، فكل عرف عادة، وليس كل عادة عرفاً.

مقصور، والمنطق مبسوط،[4] **والنحو يتبع ما في طباع العرب** وقد يعتريه الاختلاف، **والمنطق يتبع ما في غرائز النفوس** وهو مستمر على الائتـــلاف... ».

و يقول في نهاية المقابسة:« وبهذا يتبـــين لك أن البحث عن المنطق قد يــرمي بك إلى جانب النحو، والبحث عن النحو يـــرمي بك إلى جانب المنطق، ولولا أن الكمال غــير مستطاع لكان يجب أن يكون المنطقي نحــويًّا والنحوي منطقيًّا»[5].

كان هذا الفهم **للطبيعة العُـــرفية للنحو** في مقابل **الطبيعة العقلية للمنطق** استباقًا مبكرًا من التوحيدي و السجستاني للفهم الحديث الذي نجد بداياته في حركة *Favre Claude*(1585- 1650) أمير منطقة *Vaugelas* بفرنسا الذي قال عبارته المشهورة«إن الفيصل هو الاستعمال، وليس للعقل في اللغة مجال»،وكانت الأكاديمية الفرنسية من أنصار هذا الـــرأي، إذ كانت تجعل مهمـــتها عرض «القواعد التي وضعها الاستعمــال» و«استخلاص هذه القواعد من ملاحظة اللغة الحية»، فالشهادة في النحو مأخوذة من العُـــرْف وعادة أصحاب اللغة، فما تعوَّدوه من أساليب التعبــير وما جرت به ألسنتهم وما ألفـــوه في كلامهم من طرائق معينة في التعبــير بالألفاظ؛ هذا هو المصدر الوحيد لنحو كل لغة، والمقياس الوحيد للحكم بالصواب أو الخطأ في الحديث بتلك اللغة .

4_ النحو محصور بالتتبع و الرواية و السماع و القياس المطَّــرد على الأصل المعروف على قول أبي سعيد السيرافي، بينما المنطق مبسوط غير محدد بالوقائع اللغوية ، فهو في العقول لا في الشفاه و الأسماع.

5- **أبو حيان التوحيدي**، المقابسات،تح: حسن السندوبي،دار سعاد الصبَّاح،الكويت،ط1992،2، ص170- 171.

[المقابسة رقم(22)]